

القداحة الحمراء



(1) نعم يا ((عاصف)) هذا هو طريق النضال فهو ليس معبد بالورود وهذه هي طبيعة الصراع الطبقي لطليعة البرولتاريا وأنت (طبعاً) من هذه الطليعة في صراعها ضد البرجوازية والبرجوازية الصغيرة حتى وإن كانت حليفة بقيادة حزب البعث فالتحالف ليس إلغاء الصراع وهذا ما تقوله أدبيات الحزب والكراريس الحمراء .

كان يردد هذا مع نفسه وهو في السيارة التي تقله إلى المحطة الأخيرة لتنقلته من زاخو أقصى الشمال إلى الفهود أقصى الجنوب عبر طريق ترابي متعرج تحف به المياه واكمام القصب من كلا جانبيه .

زادت هذه التنقلات من عزمه وفرجه إذ رتمه وسط جمع أحيائه العمال عمال المصب العام في المغيشي وجمع من عمال البناء في الفهود لبناء معمل جديد للطا بوق هناك .

في ناحية ((الفهود)) شارع يمتد إلى ناحية الحمار ثم إلى مركز قضاء الجبايش هذا الطريق ابتداء من قبة (سيد نجف) - آمل أن لا نستغرب من كثرة قباب وأضرحة السادة ومقامات الأولياء في هذه المناطق، عدد الأضرحة والقباب يتناسب طردياً مع حجم المآسي والآلام والبؤس الذي يعاني منه سكان الأهوار مما يدفعهم إلى أن يتمسكوا بأكثر من حبل للنجاة والشكوى فهمومهم لا يستوعبها ضريح واحد

مثل سيد دخيل وفواده أم هاشم وسيد محمد وسيد بخور وسيد يوشع الذي يتمتع بقديسية كبيرة في الفهود وما حولها..و..و- غالبا ما تحيطه المياه من كل جانب مما يضطر المسافر أن يستأجر زورقا حتى الحمار وخصوصا أيام ارتفاع مناسيب مياه دجلة والفرات حيث تلتقي مياه النهرين هناك ويبدو واضحا الفاصل بينهما على امتداد الهور لاختلاف كثافة ماء دجلة عن كثافة ماء نهر الفرات فيبدو الفاصل خيلا رفيعا يفصل بينهما كحبيبين يحتضن احدهما الآخر حتى يلتقيا تماما ليزوب احدهما في الآخر في شط العرب انه وليدهما الأكبر . تظهر الفهود والحمار والجبايش عبارة عن جباشات كبيرة تحيط بها عدد من الجباشات الصغيرة تعتليها بيوت سكنة الاهوار المتناثرة على طول وعرض الهور يتم التنقل من احده إلى الآخر بواسطة البلم.

يوجد في الفهود مطعم واحد هو مطعم أبي جاسم المبني من الطين والمسقف بالبواري والذي لا يتوفر إلا على ألتمن واليابسة (مرق الفاصوليا) والسّمك المقلي نظرا لوفرتة في المنطقة هناك قهوة أبو راجي وكاظم (الوسخ) كما يسمونه أهل الناحية وهناك بعض الدكاكين للبقالة والقصابية ومحل للصابئة الذين يتميزون بصناعة أدوات الزراعة البدائية (المنجل والمسحاة والمذراة والكرّك وأعوادها) وهم يفضلون السكن على ضفاف الأنهار وحافات الاهوار ليكونوا قرب الماء الجاري المقدس لديهم والذي تجري بعض طقوسهم فيه كما هو معروف.

اغلب كادر المركز الصحي كان من خارج المحافظة من البصرة والنجف والسماءة وبغداد . كان (عاصف) يقضي بعض الوقت في مقهى أبي راجي نظرا لأريحته ونظافته وحسن معاملته ومعرفته الواسعة بالمنطقة وتاريخها وسكانها .

لفت نظره في القهوة تردد رجل تجاوز الخمسين من عمره يعتمر (جراويّة) بغدادية ودشداشة عربية (وكَيّوه) يتكلم عربيّه (مكسرة) ويتنكب مكنسته على طوال النهار يدعى((كاكه حسن)). خلال تكرار تواجدهم معا في المقهى عرف (كاكه حسن) إن عاصف موظف جديد في الناحية و عرف عاصف إن كاكه حسن يعمل (كناسا) في بلدية الفهود !! وهو من الأكراد المهجرين من كردستان بعد انهيار الثورة الكردية ضد نظام البعث عام 1975 على اثر اتفاقية الجزائر بين صدام حسين وشاه إيران بواسطة المرحوم بومدين الرئيس الجزائري السابق .

على طول فترة مكوث عاصف في الفهود غالبا ما كان يشاهد عناق حميمي عنيف بين الكرد حيث يحتضن احدهما الآخر حتى يسقطا أرضا . وعندما استفسر من (كاكه حسن) عن هذه الظاهرة قال بألم ظاهر : - كاكه هؤلاء الكرد من عائلة واحدة فرقتهم الإحداث ولا يعلم احدهم مصير الآخر عندما سفرتهم السلطة ووزعتهم على المناطق الجنوبية ووضعتهم في صرائف من القصب والبردي أعدت لهذا الغرض . وحينما يستقر احدهم في مكان يظل يسأل عن أهله وذويه وعندما يحصل على خبر وجودهم في احد المحافظات يقصده وهو غير مصدق انه سيجده حيا !!!

يسحب كاكه حسن كيسه المعلق في حزامه ليلف سيكاره من تبغه (الممتاز) الذي يعرف نوعياته جيدا ثم

يلقهما (سبيل) غير مألوف الطول ليدخن سيكارتته . شارحا إن هذا التبغ من النوع (أبو الريحه)
هذا تتن مال كردستان العراق ((زور باشه)) ممتاز كما يصفه لصديقه عاصف ، شاكرا ما يقدمه له من
هذه السكائر اللف لأنه كان يدخن أحيانا سكاره (الباكيت)
سأل ((كاكه حسن))

هل أنت وحدك هنا ؟ أجاب بنعم دون أن يضيف المزيد ؟ وعن سكنه قال إنني أبيت في مولدة الكهرباء ()
وهي ماكنة سحب ماء محورة لتكون مولدة كهربائية تابعة لبلدية الناحية يتم تزويدها بالكاز والدهن
من قبل الدولة ويشرف على تشغيلها وصيانتها عمال تابعون للبلدية ()
وا [كاكه] إنني ينام بصعوبة في الليل بسبب صوت (مكيئة) المزعج وقد حاولت إن احصل على
سريفة((صريفة)) لأسكنها فلم يعطيني مدير الناحية صريفة لأنني لست ضمن عائلة ، ثم قطب جبينه نافئا
دفعه كثيفة من دخان سيكارتته وممسكا بقوة بساق مكنسته وقال متسائلا ؟ - الم يكن مدير الناحية خادم
الشعب ؟ وأنا واحد من الشعب ؟

- (بوجيه) لماذا ما يعطيني سريفة إنني لازم يخليه يعطيني سريفة ؟
يوما بعد آخر تعمقت علاقات عاصف مع ((كاكه حسن)) ويبدو انه أدرك بفطنته وذكائه وبتجربته انه لا
يختلف عنه فهو منفي مثله وليس من أزام السلطة .
من الملاحظ على كاكه حسن انه لا يلقي (المكنسة) من يده فهو لا يعرف معنى لساعات الدوام الرسمي
كجندي في حالة إنذار دائم ضد عدو متربص كان عدوا لدودا للنفايات والأوساخ حيثما وجدت وفي أي وقت
على طول وعرض الشارع ، الشارع الوحيد المعبد في الناحية ونظافته من مسؤوليته باعتباره الكناس
الوحيد في بلدية الفهود

وذات يوم قال بعد أن سأله((عاصف)) عن المكنسة :-
هي بدايات توزيع وتقسيم العمل بين الرجل والمرأة هذه المكنسة من صناعة المرأة عندما اختصت
برعاية الأطفال والحيوانات الأليفة في الدار مما تطلب الأمر منها إيجاد وسيلة لتنظف بها الدار !!؟؟
وان المرأة لا تحصل على حريتها إلا عندما تتخلص من هذه المكنسة ، وها إنا امسكها في الشارع وهي في
البيت فانا امرأة الشارع وهي امرأة البيت وكلانا تابع لمستعبد واحد ؟؟؟!!!

كثيرا ما تعتريه الدهشة حينما يصغي لكلام (كاكه حسن) كأنه فيلسوف يتكلم وليس (كناس بلدية)
بائس !! وعندما استفسر منه عن الكتاب الذي قرأ فيه هذه المعلومة عن المكنسة ؟؟
- كاكه آني لا يقره ولا يكتب ؟!! لكن هذا ما يقوله العكل واشر بإصبعه على صدغه .. بابا هذا كلام يجي
من هنا من هنا .. أي من العقل .

لا يصدق((عاصف)) ما يقوله ((كاكه حسن)) وهو يظن انه لا بد أن يكون مثقفا و منتميا إلى حزب يساري
في فترة من فترات حياته فكل ما يقوله يدل على ذلك .
ثم يسترسل عاصف واصفا تفاصيل يومه وجولاته مع ((كاكه حسن)):-

نوبة حراسة مخدع الحبيبين وعرسهما المتجدد منذ الأزل . لا تغمص عيونهن إلا بعد أن تتناهب العروسة ناشره نورها الذهبي عند الفجر، مقبلة وصيفتها نجمة الصباح الوضاءة شاكرة لها حسن حراستها ورعايتها لتسطيح بوجوه العمال والفلاحين والصيادين شهود يقظتها كل صباح مباركة لهم سعيهم من اجل جمال وكمال واستمرار الحياة على سطح الأرض أهمهم المعطاء .

ما إن يسترد ((عاصف))وعيه بعد هذا الخدر المبهج الخلاب حتى يدخل في عالم أساطير وحكايات (كاكه حسن) وهو يقص حكايات كاوه الحداد والملك الضحاك مرددا بعضا من أقوال وحكم كردية قلما افهم ما يقول و هو يحاول أن يفهمه مضمونها مثل ((إذا لم تكن وردا لا تكن شوكا) و) قال غراب لغراب أنت اسود)) .

وذات مرة سأل كاكه حسن - ما الذي شغل جليامش عن إكسير الحياة بعد إن حصل عليه فسرقته منه الأفعى وبذلك ذهب جهده وطموحه وأمله في الخلود هباء ثم ضحك متهكما مذكره بمثل عربي مشهور (رب ضارة نافعة) .. نعم فلربما كان قدرتي بالنفي إلى موطن ((كَلَلَكَا مَش)) أن استرد أكسير الحياة من جوف الحية السارقة فهي بالتأكيد لم تزل تعيش في وسط هذه الالهوار وبذلك أعيد للبشرية حلمها العظيم وجنة عدن المفقودة حيث أن هذه الأرض هي موقعها كما يذكر أهل التاريخ؟؟نعم ويعيد الجنة والسلم والمحبة للناس جميعا كردي منفي مراقب لا يملك شبرا من ارض وطنه ولا مسكنا يؤويه ، لا لذنب اقترفه سوى انه يحلم في أن يكون لامته الكردية المقطعة أوصالها بين الأمم ووطن مثل كل أمم وشعوب العالم صغيرها وكبيرها .. لا لذنب اقترفته ولكن لأنها الأمة الوحيدة التي لم تغزَ أحدا ولم تغتصب ولم تضطهد أي شعب من شعوب العالم لا في التاريخ القديم ولا الحديث وإنما لم تصطف مع الإمبراطوريات والقوى الكبرى لتكون مطية لها ضد الشعوب الأخرى لذلك كان قدرها الضياع والظلم والتجزئة حتى في عصرنا الراهن عصر الحرية والديمقراطية كما يدعون !!

ثم يستل كيس تبغه ويبرم على عجل سكاره يلقمها غليونه ويولعها بقداحته الحمراء فريدة الشكل والنوعية التي لم يَر مثلها ((عاصف)) سابقا ولا يعلم من أين جلبها ((كاكه حسن)) الذي يقول أنها الإرث الوحيد الذي تركه له والده الذي ورثها عن جده وجده عن جده وإنما لم تشتعل في أيدي غير أيديهما إلا بأمر منهم وقد حاولت أن أجربها طنا مني انه كان يسخر مني ولكنها فعلا لم تشتعل رغم محاولاتي العديدة، فأخذها من يدي ضاحكا وتمتم عليها بما لا اعرفه ثم أعادها إلي قائلا:-

الآن أشعل بها ما تريد فقد أصبحت أنت مثلي تأمرها فتستجيب كأنك احد أفراد العائلة التي تملك وحدها سر إشعالها فقداحتي هذه لا تستجيب إلا لمن كان من السائرين على خط جدنا الأول كاوه الثائر وهي تقدح شررا يحرق وجوه المتخاذلين ومناصري الظالمين والمستبدين حينما يحاول قدحها فزيتها من دماء شهداء العدل والحرية !!!.

يستمع((عاصف)) بانبهار ومزيذا من الشك فيمن يكون هذا الكناس أو هذا المنظر والفيلسوف الكبير المسحور في لباس كناس بائس؟؟!!

يكتم تساؤلاته /يعودا أدراجهما ككل يوم دون أن يشعرا بتعب سائرين وسط ثغاء قطع الأغنام والماعز وقفزات الجراء الصغيرة الفتية المعافاة وهي تستعرض حركاتها البهلوانية أمام سيدها راعي الأغنام عسى أن يكافئها بمزيد من أرغفة الخبز وفضلة من عظام الطيور والأسماك الأكل المعتاد لسكان الاهوار الذي يمتن اغلبهم مهنة الصيد ورعاية وتربية الجاموس .

يودع كاكه حسن ليتناول طعام العشاء في مطعم (أبي جاسم) ثم مقهى أبي راجي فدار العمال كان هذا الأمر قبل أن انهمك في العمل (الحزبي) الذي يكاد محضورا آنذاك في ناحية الفهود رغم وجود التحالف الجبهوي بين حزب البعث والحزب الشيوعي العراقي .

كثيرا ما كان يتسلل من المدينة متخفيا بزي عربي صوب احد (الرفاق) في(العمامرة) أو احد الأكواخ المعزولة وسط الهور فيتم نقله إلى هناك بواسطة زورق يكون بانتظاره في مكان محدد على حافة الهور . ليدخل هنا في عالم أشبه بعالم الكهوف أو عالم سومر القديمة وسط اهوار الحمار جالسا وسط عدد من الفلاحين والصيادين وخليط من طيور الخيزري والبط المدجنة وأحيانا يشاركه جلستهم دون حرج واحد أو أكثر من الخراف و ينبطح مبحلقا في باب الكوخ أكثر من كلب يتدفأ من نار الموقد الذي يجتمع الرفاق حولها في الشتاء . بعد التحية و[] بالخير يبدء يشرح لهم النظرية الماركسية وفائض القيمة وحتمية انتصار الاشتراكية ونظرية التطور اللارأسمالي صوب الاشتراكية عن طريق توثيق عرى الجبهة الوطنية التي كانت سائدة في مواضعهم الثقافية آنذاك .. يسهب أحيانا في شرح ذلك لفلاحين أميين ، لا يزيدون على هز رؤوسهم بنعم رفيق ... صحيح رفيق... صار رفيق !!!؟؟ كان العديد منهم يتغيب أو يختلق الأعذار لعدم الحضور كيلا يتعرض للإحراج عندما يسأل عن عدد أصدقائه أو من استطاع أن يرشحهم للحزب ؟ أو عند موعد جمع الاشتراكات والتبرعات الشهرية من الرفاق والأصدقاء؟؟؟ .

حينما يلتقي ((كاكه حسن)) في اليوم التالي لا يسأله أين كان ولماذا لم يكن في مقهى((أبي راجي)) عند العصر ولم يرافقه كالعادة إلى الروف وكأنه يحسد من حيث لا يدري انه يمارس عملا شبه سري ولم يدور في خلد بعضهم أن يسأل الآخر عن انتماءه السياسي أو مذهبه ولأي حزب ينتمي. في يوم 21-3-1976 افتقد كاكه حسن حيث لم يجده في مقهى ((أبي راجي)) وقد انتابه القلق بعد أن سأم الانتظار إذ قارب المساء أن يحل دون أن يأتي إلى المقهى . وبعد إن سأل أبا راجي إن كان قد شاهد ((كاكه حسن)) اليوم ؟

فأجاب به بأنه لم يجلس اليوم في المقهى بل مر متنكبا مكنسته وهو يرتدي شوالا جديدا وتوجه صوب الروف ؟؟؟ مستدركا فقد يكون ذاهبا لزيارة احد معارفه أو أقاربه من القرد في الرائف المتناثرة في الناحية وربما لعرس فلأول مرة أراه يلبس شروال.

سلك((عاصف)) دربه المعتاد عليه كل يوم وكلما اقترب ترآى له (كاكه حسن)) وهو يدور فوق الروف ولما أدركه متسائلا ومستغربا فعله . توقف لحظة وهو يأمره - كاكه ((عاصف)) اجمع أعواد القصب والبردي اليابس بسرعة بسرعة وكومها هنا هنا بسرعة فقد حل علينا الظلام؟؟

وفي حالة ارتباك واستغراب فعل ما اراد وسأله ماذا يريد بهذه العيدان؟؟
أشعل بيها نار.. أشعل ناراً ، ناوله قداحته الغربية الحمراء وبعد إن أشعلت النار بهذه القداحة
الغربية الشكل والاستعمال والتي اشتعلت هذه المرة من القدحة الأولى
!!!

امسك بيده وبدء يضرب الأرض برجليه ويهز كتفيه فشاركه الدبكة الكردية الرائعة بعد إن عرف انه
يحتفل بعيد ((نوروز)) العظيم . رقصا ورقصا حول نار نوروز الملتهبة وأحسنا إن كل الطيور
والخضيري والبط واسماك الهور شاركتهم فرحتهم وان ذؤابات القصب وعرانيمص الخريط الصفراء وزنايق
الماء الحمراء تتمايل وتهتز طربا وكأنها تشارك السنديان والجوز وفرحة قبح كردستان بهذا
اليوم الجميل الذي يدعو فيه ((كاه حسن)) الى وجوب أن يكون هنا ((كاوه)) مال اهورا وقد ومضت في
ذهن((عاصف)) فورا صورة ((خالد احمد زكي)) كاوه وجيفارا الاهورا.

(2) بعد عدة أيام من رقصة عيد نوروز النارية الجميلة . هبت ريح صرصر عاتية وأمطار غزيرة مع رعد
وبرق بشكل مفاجئ مساء يوما آذارى كالعادة في مثل هذه الأيام من شهر آذار (شهر الهزاهز والإمطار)
كما يقول أهلنا وقد أعلمني بعض الرفاق الصيادين بأنهم يتوقفون عن النزول إلى عمق الهور في مثل
هذه الأيام خوفا من الضياع والغرق فقد ابتلعت الاهورا الهائجة العديد من الصيادين مع
زوارقهم وعدد صيدهم وكأنهم قرابين يقدمها الهور إلى آلهة الماء والنماء لشد عزيمتها في
صراعها مع آلهة الريح والسماء حيث أنين الريح العاصف كعواء ذئب مجروحة وسيل إمطار
غزيرة وأصوات الرعد كصوت طبل بسعة وحجم السماء تضرب عليه بعصي عملاقة عفاريت وشياطين غاضبة
لإرهاب بني الإنسان وسط تطاير شرر البرق من عيون آلهة النار والدماء متوعدا باحراق الأخضر
واليابس ويجفف الأنهار الاهورا تحديا لآلهة الأرض الإنسان الذي يسعى ليكون ألهة .

لم يستطع إن يرى ((كاه حسن)) طبعاً في ذلك اليوم الممطر العاصف ولكنه أحس بقلق شديد عليه
ربما كان مصدره تصوراته لحال الاهورا في منامه وكوابيسه حيث رأى (كاه حسن) وهو يصارع الأمواج
والأفاعي العملاقة في جوف الهور الهائج مما دفعه للخروج في اليوم التالي وكان يوما ربيعيا
مشمسا كأنه ينبئك بان الهور بطيوره وأسمائه وقصبه وبرديه مبتسما يسخر من طيش وحماسة آلهة
الريح والبرق والمطر في تحديها للآلهة الماء والنماء فقد قهرت وعادت بالخيبة والخسران بينما
ازدادت الاهورا والأنهار امتلاءً واتساعاً وازداد القصب والبردي سحرا وجمالا بعد أن استحمت في
مياه الإمطار الغزيرة فاغتسلت وتخلصت من كل غبار وعوالق الخريف والشتاء كأنها أفواج أطفال
تطفح وجوههم بالبشر والصحة والسعادة فرحين بملابس عيد الربيع الجديد.

لا يوصف في مثل هذه الأيام منظر ارتعاش ذؤابات القصب وعرانيمص (الخريط) وهي تهتز فرحا حينما تمس
سيقانها الملساء البيضاء الناعمة الطرية شفاه الأسماك الحمراء لتطبع عليها قبلات الحب والألفة
والمودة وهم يعيشون معاً منذ الأزل في رحم هذا الهور الواسع كحوض أم عطوف وهي تتواصل مع أبناءها

كل إحياء الأرض من إنسان وحيوان. وكيف إن الريح تعصف في الخريف لهز جذوع الأشجار وهي تنحني مودة وإجلالا لها حيث انتخت لتخليص أغصان الشجر من أوراقها الصفراء التي أصبحت تثقلها دون فائدة ثم تغتسل بماء المطر طيلة الشتاء لتحتضن براعم خضراء وزهور الربيع القادم.

يستمالما كينة فلمو يتصبب عرقا وألما وهو يروي تفاصيل بحثه عن ((كاه حسن)).

قصد الماكينة فلم عنر عليه في مقهى أبي راجي قائلا مع نفسه:-.

ربما لم يزل الوقت ميكرا على تواجده في المقهى...ولكنني صدمت حينما عرفت من عمال المولدة إن كاه حسن لم يبيت ليلته في مبنى الماكينة لأول مرة منذ أن أتى للفهود وإنهم في حيرة من أمرهم هل يخبرون الجهات الأمنية التي إمرتهم بمراقبته أم ينتظرون مجيئه؟؟؟ فمن الصعوبة التستر عليه فربما هرب عائدا إلى الشمال من يدري؟؟؟

ازداد قلقه ودارت في رأسه أفكار خطيرة ومثيرة وأخذت يستعرض مشاهد وصور كوابيس ليلة أمس... سال عنه كل من صادفته على امتداد الشارع الذي ينتهي عند ((بنكالة)) السمك عند حافة الهور من الجهة الغربية للمدينة دون جدوى . ولكن عند وصوله البنكالة أجابه على استفساره احد الصيادين قائلا:- انه استغرب كثيرا لوجود كاه حسن على حافة الهور في مثل هذا الوقت ولكني كما يقول الصياد انشغلت عنه بجمع شياكي وربط البلم تحت وابل من المطر ولفح الريح العاتية ولم اعرف سبب وجوده ولا ما حصل له بعد ذلك؟؟؟

هرع مصطحبا معه الصياد داعيا الجميع إلى مرافقته كمن يجمع الناس ل((فزعة)) إلى المكان الموصوف عله يستطيع أن يساعد (كاه حسن) في صراعه مع الأفاعي في بطن الهور لاسترداد عشبة الخلود وكأنه يعيش كوابيس الأمس في الواقع وليس في الحلم؟؟؟

لم يعثروا على ((كاه حسنا))ولا على الزورق بل أستقبلهم الهور بوجوم وسكون وصمت غريب كأنه وكل كائناته يقف لحظة حزن عميق!!!!

عثروا على مكنسة ((كاه حسن)) مربوطة بسلسلة البلم وقداحتها الحمراء ،التي لم تنزل عند((عاصف)) بالحفظ والصون حرصه عليها لم يدانيه حرص على أي شيء آخر، وهو لا يعلم لمن يسلمها لأنه لم يتعرف على احد من عائلة (كاه حسن) رغم بحثه المضني عنهم؟؟؟!!!